مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 1125 - 1140 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نظرية " سياق الحال " في البحث اللغوي عند العالم الأنتروبولوجي " برونيسلاو كاسبار مالينوفسكي ".

The " Situation Context" Theory in Linguistic Research of Anthropologist Bronislaw Kaspar Malinowski.

عبد الباقي غفور *
Abdelbaki GHAFFOUR
مخبر حوار الحضارات والديانات في الحوض المتوسط.
جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان/ الجزائر.
University Abou bakr Belkaid – Tlemcen / Algeria.
ghaffour@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/06/29	تاريخ القبول: 2021/08/19	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

يعد "السياق" من أهم المباحث التي اهتم بها العلماء قديما وحديثا، حيث يعتبر محورا رئيسيا من محاور الدلالة، وثمرة من ثمرات اللسانيات، ومنهج معتمد في البحث اللغوي. فغاية علوم اللغة جميعا على غرار أنتروبولوجيا اللغة، هو الوصول إلى المعنى.

تعتبر نظرية "سياق الحال" من أهم النظريات في الدرس اللغوي. ولقد تنبّه العالم الأنتروبولوجي البولوندي "برونسلاو كاسبار مالينوفسكي" إلى فكرة سياق الحال وأشار إليها من خلال أبحاثه الحقلية التي قام بها في "جزر التروبرياند". فوجد أن السياق يُحدّد الدلالة المقصودة، فلا معنى للكلمة خارج السياق الذي تستعمل فيه، وإنّما تنهل الكلمة معناها من السياق ذاته. ومن هنا نجد أن السياق بجانبيه اللغوي والحالي، مبحث بالغ الأهمية لدى الباحثين المحدثين، وله أهميته في تحديد المعنى المراد. فما هو السياق؟ وما هي أهميته؟ وما هي تجليات تطبيق نظرية سياق الحال عند "برونيسلاو مالينوفسكي" ؟

الكلمات المفتاح : سياق؛ سياق لغوي؛ سياق الحال؛ دلالة؛ معنى.

Abstract :

"Context" is one of the most important topics that scholars have been interested in, in the past and present, as it is considered a major axis of semantic, a fruit of linguistics, and an approved method in linguistic research. The goal of all linguistics, like the anthropology of language, is to reach meaning.

* عبد الباقي غفور: ghaffour@yahoo.fr

The theory of "case context" is considered one of the most important theories in the language lesson. The Polish anthropologist, Brunslaw Kaspar Malinowski, became aware of the idea of the context and referred to it through his field research carried out in the "Troubrand Islands". He found that the context determines the intended meaning, The word has no meaning outside the context in which it is used, but the word derives its meaning from the same context. Hence, we find that context, in both its linguistic and situation sides, is a very important topic for modern researchers, and has its importance in determining the intended meaning. So what is the context? What is its importance? What are the manifestations of applying the situation-context theory of "Bronislaw Malinowski"
Key words : context; linguistic context; context of situation; semantic; meaning.

1- مقدمة:

إن حاجة الإنسان للتواصل جعلته يتبع أكثر من وسيلة، محاولا بذلك إضفاء نوع من التفاهم والتفاعل بين الناس، ومن بين هذه الوسائل التعبير اللغوي الذي يتخذه كوسيلة للدلالة على المعاني الفكرية والنفسية. لكن هذه الوسيلة قد تعجز عن إيصال المعاني المقصودة بدقة، وذلك لأن اللفظ الواحد يمكن أن يعبر عن عدة دلالات، وهذا ما يؤدي غالبا للبس بسبب تعدد الدلالات.

من هنا ظهرت الحاجة إلى "السياق" الذي يعد من أهم المباحث التي اهتم بها العلماء قديما وحديثا، حيث يعتبر محورا رئيسيا من محاور الدلالة، وثمرة من ثمرات اللسانيات، ومنهج معتمد في البحث اللغوي. فللسياق أثر كبير في تحديد دلالة الكلمة على وجه الدقة، وبوساطته تتجاوز كلمات اللغة حدودها الدلالية المعجمية المألوفة لتفرز دلالات جديدة قد تكون مجازية أو إضافية أو نفسية أو إيحائية أو اجتماعية. فغاية علوم اللغة جميعا – ومنها أنثروبولوجيا اللغة – هو الوصول إلى المعنى. وللوصول إلى هذه الغاية قامت نظريات عدة، أهمها النظرية السياقية الاجتماعية التي يتزعمها الإنجليزي "فيرث" في العصر الحديث متأثرا بمن سبقوه ومنهم الأنثروبولوجي "مالينوفسكي". هذا وقد عدّ "ستيفن أولمان" نظرية السياق–إذا طبقت بحكمة–حجر الأساس في علم المعنى، لأنها قادت إلى مجموعة من النتائج الباهرة.[1]

ولعل هذا ما يتفق مع نظرة النمساوي "فيلغشتاين" الذي يرى أن ما يحكم الكلمة ليس معناها أو مدلولها، وإنما كيفية استعمالها في الكلام والسياق الذي ترد فيه. فالكلمة الواحدة تدل على معنى في سياق معين، فإذا تغير السياق تغير معناها. وفي هذا الشأن نجده يقول:" وليس للكلمة دلالة بل استعمالات ليس إلا."[2] فلما نقول: "استعمال الكلمة" لا نعني به توظيفها في كلامنا لندل بها على

معناها فحسب، بل نراعي في استعمالها كل الظروف الخارجية والداخلية التي تحيط بالحدث الكلام، لنجعل الكلمة مناسبة للسياق وإلا كان هناك خلل ولبس في الفهم وتقدير الأمور.

فما هو مفهوم "مالينوفسكي" الجديد للغة ؟ وماهي وظيفتها في تقديره ؟ وكيف تنبّه إلى فكرة سياق الحال ؟ وما الذي قصده بها ؟ وما هي النتائج التي انتهى إليها ؟

2- مفهوم السياق:

2-1-السياق في اللغة:

إن مادة (سوق) تكتنفها عدة معان، من أبرزها: الحث وهو سوق الإبل، وهو المعنى الأصلي، ثم استُعير في سَوق المهر للمرأة، ومنها نزع الروح، وهي المجاز، ومنها التتابع والاتصال ملاحظة لحركة سير الإبل. ولقد جمع المعجم الوسيط شتات هذه المعاني تحت أصل واحد، فقال:" ساق الحديث، سرده وسلسله، وإليك يُساق الحديث، وساق المهر إلى المرأة أرسله إليها، وساوقه، تابعه وسايره وجاراه، وأساقه ماشية، جعله يسوقها وملّكه إياها، وانساق، أي تبع غيره وانقاد، وتساوقت الماشية، تتابعت وتزاحمت في السير، والشيآن تسايرا أو تقارنا، والسياق المهر، وسياق الكلام، تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه".[3]

2-2-السياق في الاصطلاح:

يدل السياق من حيث الاصطلاح على:" مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها، (الكتابي والشفاهي)؛ وتعبيرهم بمجموع الظروف يفهم منه المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ فيه الظرف مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء والفكرة التي يصطنعها كل واحد عن الآخر بما في ذلك التمثيل الذي يمتلكه كل واحد عما يفكر به الآخر، والأحداث التي سبقت التعبير".[4] ويعرف بأنه: "بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه".[5] سواء كانت هذه القرائن لفظية أم غير لفظية. كما جاء تعريفه بأنه: " البيئة اللغوية (Linguistic context) التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة."[6] ويعني:" الوحدات التي تسبق وتلي وحدة لغوية محددة، كما يعني مجموعة العوامل الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي".[7]

2-3-بعض أوجه السياق:

ينقسم السياق الذي يعتبر أحد أهم العناصر الضرورية والمهمة في تحديد الدلالات المقصودة إلى قسمين: السياق اللغوي أو سياق المقال والسياق غير اللغوي أو سياق الحال أو المقام. وهذا ما ذهب إليه "آف. آز. بالمر" في تقسيمه للسياق.[8]

2-3-1-السياق اللغوي:

فهو النَّظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النَّظم، وهو يشمل عند اللغويين الكلمات والجمل السابقة واللاحقة للكلمة، والنص الذي ترد فيه.[9] فالسياق اللغوي يشمل كل ما يصاحب اللفظ من ألفاظ تساعد على توضيح المعنى، سواء تقدّمت عليه أم تأخّرت عنه، أم اكتنفته من جانبيه. ويسمى السياق الداخلي أو سياق النص، ويقصد به الوحدة اللغوية، وهي الجملة التي تتشكّل من خمس مستويات وهي: الصوتي، والمعجمي، والصرفي، والنحوي والقصصي.[10] والسياق اللغوي نوعان: سياق نحوي أو تركيبي وسياق معجمي.

أما السياق النحوي أو التركيبي: فيبين موقع اللفظة في الجملة من حيث هي وحدة نحوية. فمن المتعارف عليه أن الكلمات لا تتوالى في الجملة على نحو عشوائي، بل يخضع ترتيبها لأنساق تركيبية مضطردة وعلاقات شكلية داخلية معقدة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي في لغة ما. كما يوجد في اللغة كلمات لا تحمل معنى معجميا، إنما يظهر معناها في السياق من خلال وظيفتها في التركيب مثل أدوات الشرط وأحرف الجزم. إذن فالعلاقات النحوية هي التي تعطي الكلمات معناها، وتجعل من اجتماعها وترابطها عبارات ذات معنى.

وأما السياق المعجمي: فيبين دلالة الكلمة من حيث هي وحدة معجمية، فهو تلك العلاقات البنيوية الأفقية التي تقوم في العبارة بين المفردات بوصف هذه الأخيرة وحدات معجمية دلالية لا بوصفها وحدات نحوية أو أقساما كلامية عامة. فالجملة قد تكون صحيحة من حيث انسجامها مع قواعد التركيب النحوي، ولكنها تُعد في الوقت نفسه شاذة من الناحية الدلالية.[11] وهذا يعني أن الجملة قد تتسم بالسلامة التركيبية النحوية ولكنها قد لا تكون سليمة فيما يتعلق بالدلالة المعجمية وفي علاقتها مع الكلمات، فالمعنى المعجمي للكلمة يختلف عن معناها السياقي الذي تكتسبه من خلال علاقتها بغيرها من الكلمات، ولكن هذا لا ينفي أهمية المعنى المعجمي ودوره في إبراز معنى الكلمة.

2-3- 2-السياق غير اللغوي:

السياق غير اللغوي أو سياق الحال في الاصطلاح هو:" جملة العناصر غير اللغوية المكونة للموقف الكلامي من شخصية المتكلم والسامع، والعوامل الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف، وعلاقات الزمان والمكان وسائر الظروف المحيطة بالكلام، والتي تسهم في تكوينه وتؤثر فيه.[12] أي هو:" مجموعة الظروف التي تحيط بالكلام، وجميع القرائن الحالية التي تصبغ الخطاب ودلالته

بصبغة خاصة".[13] فهو الذي يساعد في كشف معنى الكلمة نتيجة الوضع المتفق عليه بين المتكلم والسامع.[14]

وعليه فالسياق غير اللغوي هو الظروف والأحوال التي صدر فيها هذا الملفوظ (الجملة). وهو ما سماه بعض المحدثين بـ "السياق الاجتماعي"،[15] أو ما يعرف في علم الدلالة اليوم باسم "سياق الموقف"؛ وهو ما سماه قدماء العرب من البلاغيين بـ "المقام". ومن هنا فإن السياق غير اللغوي يسمى بسياق الحال أو السياق الخارجي، ويشمل سياق المقام والسياق الاجتماعي والسياق التاريخي وسياق الموقف.[16] فسياق الحال يشمل ما قبل اللحظة التي يتم فيها الكلام وما بعدها، على اعتبار أن الحديث أو الكلام يأخذ مداه.

ومن هنا يمكن القول إن السياق اللغوي يعتمد على الصوت والتركيب والبناء الصرفي...إلخ. أما السياق غير اللغوي فيعتمد على المُخَاطَب والمُتَكَلِّم والظروف المحيطة بالخطاب ثقافية واجتماعية، والزمان والمكان؛ ويعني به الخلفية غير اللغوية للكلام أو النص، أي مجموع العناصر غير اللغوية التي يكتسب الكلام أو النص من خلالها تمام معناه في الاستعمال.

والفارق الأساسي بين المعنيين، المعجمي والسياقي هو تعدّد الأول وتحدّد الثاني.[17] فالمعجم قنّن المعنى للفهم التقريبي المشترك بين الناس. فالمعنى الحرفي المعجمي وهو المعنى الأساسي للمفردة، والمعنى المجازي للكلمة وهو استعمال الكلمة لتدل على معنى جديد غير المعنى الحرفي لها. فعندما نقول إن فلانا أسد فإننا نقصد أنه شجاع. وعندما نقول شرب فلان الثقافة، يصبح استخدام كلمة "شرب" هنا مجازيا، لأن مفعولها مما ليس يشرب أساسا.[18] كما أن المعاني المختلفة للكلمة مثل كلمة "عين" يتحدد معناها بالسياق الذي ترد فيه. فالسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الرغم من المعاني المتفرعة التي في وسعها أن تدل عليها. والسياق أيضا هو الذي يخلّص الكلمة من الدلالات الماضية المتراكمة في الذاكرة وخلق قيمة حضورية لها.[19] ويمكن القول إن لكل كلمة معنى معجميا يمثل معناها الحقيقي، ومعنى تاريخيا تكتسبه بفعل الاستعمال العُرفي، ومعنىً ظرفيا آنيا تكتسبه في سياقات خاصة وظروف محددة يعيشها المتكلم. وفي هذا يقول "أولمان" :" إن أكثر الأشياء تحديدا ووضوحا قد يكون له جوانب أو وجوه عدة، غير أن وجها أو جانبا واحدا فقط هو الذي يناسب متكلما بعينه أو موقفا بالذات".[20]

ويمكن أن نمثّل لسياق الحال بكلمة (يد) التي ترد في سياقات متنوعة، ومنها: أعطيته مالاً عن ظهر يدٍ: يعني تفضّلا، ليس من بيع ولا قرض ولا مكافأة؛ هُم يَدٌ على من سِواهم: إذا كان أمرهم

واحداً؛ خلع يده من الطاعة: نقض البيعة أو تمرّد على ذي السلطان؛ بِعْتُهُ يَداً بِيَدٍ: أي نقداً، فلان طويل اليد: إذا كان سمحاً؛ سُقِط في يده: ندم؛ بين يدي الساعة: أي قُدّامها.[21] كما أن عبارة (يا سلام) إذا ما نظرنا إليها من حيث معناها الحرفي فإنها مناداة لله تعالى، ولكن هذه العبارة قد تكون صالحة للدخول في مقامات اجتماعية مختلفة مثل: مقام التّأثر ومقام التّشكيك ومقام السّخط وغيرها.[22]

3-فكرة السياق في الفكر الإنساني:

إن علماء اللغة قديما وحديثا أدركوا الوظيفة المهمة للسياق، بل إن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام مطروحة في الفكر الإنساني منذ "أفلاطون" و"أرسطو". فقد تحدث "أفلاطون" عن مراعاة مقتضى الحال في الخطابة، وتعرض لها "أرسطو" في كتابه "فن الشعر"، وأشار إلى أن الفكرة هي إيجاد اللغة التي يقتضيها الموقف ويتلاءم وإياه.[23]

ونظرا لأهمية اللفظ والمعنى عموما، اتخذت هذه القضية في تراثنا مسألة أساسية مشتركة بين العلوم والدراسات العربية التي تتصل بالكلمة واللغة، حيث أولاها العرب القدامى عناية خاصة واعتبروها قطب الرحى الذي يعوّل عليها في صنعة الكلام، وكل ما يتصل بها من ظروف وملابسات وقت القول الفعلي؛ من مثل شخصية المتكلم والسامع وتموينهما الثقافي وغيرهما. فإذا كانت نظرية السياق قد تبلورت واكتملت ودُرِسَت أُسسها حديثا، فإن جذورها وأصولها تمتد إلى التراث العربي، بفضل ما كان يتوصل إليه البلاغيون والنحاة والأصوليون والمفسرون وغيرهم من نتائج وقواعد في مختلف جوانب الدرس اللغوي.

3-1-النظرية السياقية عند البلاغيين:

من إسهام اللغويين العرب في هذا المجال، وضع معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني. فعلماء العربية لم يكونوا بعيدين عن إدراك وظيفة السياق ودلالته، فقد وجدوا أن اللفظ المجرد من سياقه لا يكشف المعنى، ولابد من ربط فكرة "المقام" أو "مقتضى الحال" بفكرة "المقال". ولعل عبارتهم المشهورة "لكل مقام مقال" تدل على تمييزهم بين شقي السياق، وهذا التمييز في حد ذاته ضروري في تحليل المعنى. ولقد ظهر ذلك عند أهم رموزه: كـ "الجاحظ" و"ابن جني" و "الجرجاني".

3-2-النظرية السياقية عند النحاة:

اعتمد النحاة الأوائل على السياق بشقيه-اللغوي وغير اللغوي-في التقعيد النحوي، كما يبدو ذلك جليا من اعتمادهم على السياق اللغوي في بيان مبنى التركيب ودلالته، وتجويزهم بهذا السياق حذف أحد عناصر الجملة وطريقة ترتيب هذه العناصر اللغوية داخل التركيب، واستعانتهم بطرق الأداء اللغوي

المصاحبة للنطق بالعبارة كالوقف والنّبر والتّنغيم. ويتضح ذلك مع "الخليل سيبويه" (ت 180 هـ) في "باب الاستقامة من الكلام والإحالة".[24] كما يتضح ذلك في قول "ابن يعيش" (ت 643 هـ):"... المصدر ينتصب بالفعل وهو أحد المفعولات، وقد يحذف فعله لدليل الحال عليه..."[25]

3-3-النظرية السياقية عند علماء التفسير:

كما اهتم المفسرون بالسياق الحالي الذي استعانوا به في الكشف عن معاني الآيات، وذلك عندما لا يكون هناك دليل لفظي عليه، إذ عمدوا إلى القرائن الحالية. ولعل أهم شيء في هذا الشأن هو أسباب النزول التي تمثل أقوى مظهر من مظاهر اهتماماتهم بسياق الحال.

3-4-النظرية السياقية عند علماء الأصول:

حاز علماء الأصول قصب السبق في حسن فهمهم وإدراكهم لدور السياق في توجيه دلالات الملفوظ، ولعل أول من نص على ذلك الشافعي (204 هـ) في كتابه (الرسالة) حين عقد بابا سماه (باب الصنف يبيّن سياقه معناه) أشار فيه إلى أن:" الكلام يكون عاما ظاهرا يراد به العام، ويدخله الخاص، وظاهرا يعرف من سياقه أنه يراد به غير الظاهر، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره".[26]

مما تقدم يتبين مدى اهتمام العرب بالسياق، إلا أنه لم يعرف نضجا واكتمالا كما عرفه في العصر الحديث، فقد تكاملت نظرية السياق واستوت على سوقها في الدراسات الغربية، حيث تعتبر نظرية السياق حجر الأساس في المدرسة اللغوية الاجتماعية التي عرفت اكتمالا على أيدي اللغويين المحدثين أمثال: "دي سوسير"، "فندرس"، "بلومفليد"، "مالينوفسكي"، "فيرث"، "أولمان ستيفن" وغيرهم كثير.

أما "دي سوسور" الذي تعمّق في البحث في اللغة وفرّق بينها وبين الكلام، فيقول:" إن الجملة أحسن نموذج للسياق، لأنها من مشمولات اللفظ (الكلام) لا اللغة، أفلا ينجز ذلك أن يكون السياق من مشمولات اللفظ".[27] وانطلاقا من هذا التمييز صنّف السياق إلى صنفين، ثابت لا يتغير ويندرج تحت اللغة كالأمثال، والثاني حر ينتمي إلى الكلام.

إلى جانب "دي سوسور" ساهم اللغوي الإنجليزي "فيرث" في بلورة نظرية السياق، حيث أكد على أن للمعنى دورا كبيرا في السياق بدلا من علاقته باللفظ. ويتحدد مفهوم "فيرث" للمعنى على أنه علاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي، بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة.

وهذا ما أكد عليه " أولمان ستيفن" الذي رأى أن الكلمة ليس لها دلالة إلا في إطار السياق، وأن النصوص لا تكون مجدية بدون الالتفات إلى السياق، حيث يقول:" إن السياق ليس مقصورا على معناه التقليدي وهو النظام اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظام، وإنما يشتمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة فحسب، بل القطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات."[28]

4-أنتروبولوجيا اللغة:

دراسة اللغة من الأمور التي أصبحت شائعة وهامة في معظم الجامعات والمعاهد، ولم تعد دراسة اللغة مقتصرة على أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، وإنما امتدت باعتبارها ظاهرة مجتمعية إلى اهتمامات الأنثروبولوجيا والاجتماع وعلم النفس.

وإذا كان علماء الاجتماع قد ربطوا اللغة بالمجتمع، وعلماء النفس ربطوها بالنفس، فإن الأنتروبولوجيون يربطونها بالثقافة، كونها وسيلة لفهم الثقافة. فالرباط الذي يربط الأنثروبولوجيا باللغة رباط تاريخي، ويرجع ذلك إلى رغبة اللغويين في محاولة فهم لغات الشعوب البدائية من خلال البحث في الصلة التي تربط اللغة بالخصائص الثقافية للإنسان في مجتمع معين؛ على اعتبار أن مفهوم لفظة (ثقافة) ما هو إلا حصيلة كلية للعادات والتقاليد، ونمط الحياة السائد لطائفة اجتماعية لها ميزاتها وخصوصياتها الحضارية.

علما أن النمط الثقافي لأي مجموعة بشرية يرتبط ارتباطا وثيقا بالنموذج اللغوي المميز لتلك الجماعة، مما يجعل تقطيع المفاهيم وتوزيعها في ثقافة من الثقافات يختلف باختلاف اللغات.[29] حيث يستدل من خلال اللغة على ثقافة الشعوب وأجناسها. كما أنه لا يمكن أن تؤدي النصوص معناها الحقيقي والدقيق دون معرفة الحال التي كان عليه المتكلم عند النطق بها.

فالباحث اللغوي الأنثروبولوجي الذي يهتم بدراسة لغة مجتمع ما، ينبغي أن يدرسها في حقلها أي كما توجد في المجتمع وعلى ألسنة أصحابها، والأهم من ذلك هو أن يعكف على محاولة الكشف عن ثقافة ذلك المجتمع، فذلك سوف يساعد كثيرا على فهم ومعرفة طبيعة اللغة التي يدرسها وذلك من خلال الإطار الثقافي الذي يدور فيه، وأن محاولة فهم التأثير المتبادل بين اللغة والثقافة سيعطيه في النهاية دراسة علمية وصفية دقيقة عن اللغة التي يقوم بالبحث فيها. فليس هناك أدنى شك في أن الثقافة تلعب دورا

كبيرا في حياة اللغة، وأن أي لغة ما هي إلا وسيلة تعبير عن تلك الثقافة، كما أن الثقافة لا تستطيع أن تعبّر عن نفسها، وأن تدوّن مفاهيمها وتسجّل محتوياتها من جيل إلى جيل إلا من خلال اللغة.

فالأنثروبولوجي يختص بدراسة العلاقة بين اللغة والثقافة في مجتمع ما مثل تقاليده ومعتقداته ونظام الأسرة فيه، كدراسة الطرق التي يتم بها التعبير عن العلاقات داخل الأسرة في الثقافات المختلفة، ما تسمى بمصطلحات النّسب، وهي الكلمات التي تبيّن القرابة البيولوجية بين الأشخاص مثل أب، أم، أخ، عم...إلخ. وكدراسة كيف يتصل الناس ببعضهم البعض في مناسبات اجتماعية وثقافية معينة مثل المراسيم والطقوس والاجتماعات، ثم ربطوا هذا بالبنية الكلية للمجتمع.

5-السياق الثقافي:

السياق الثقافي هو سياق يقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فاستعمال كلمة (عقيلته) يدل على طبقة اجتماعية عالية، لأن العامة تستعمل كلمة زوجته. وإذا أخذنا كلمة (جذر) فسنجد لها معنى عند المزارع، ومعنى ثاني عند اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات.[30] فلو وضعنا الكلمة في سياقها لكان مفهومها متّفقا عليه رغم اختلاف الطبقات؛ لأن السياق تتخلّله القرائن. وكلمة (Love) في الإنجليزية غير كلمة (Like)، رغم اشتراكهما في أصل المعنى وهو الحب. وإذا قلنا "اغتال" و"قتل" بالإضافة إلى القيم الاجتماعية التي تؤديها الكلمتان، فإن هناك نوعا من العاطفة والانفعال يصاحب الفعل؛ فإذا كان الأول يدل على أن المغتال ذو مكانة اجتماعية عالية، فإن الفعل الثاني يحمل معنى غير المعنى الأول، وهو يشير إلى أن القتل يكون بوحشية، وأن آلة القتل قد تختلف عن آلة الاغتيال، والمقتول لا يتمتع بمكانة عالية. وكلمة "يكره" العربية غير كلمة "يبغض" رغم اشتراكهما في أصل المعنى. وكلمة (Good) الإنجليزية، أو "حسن" العربية، فإن وردت في سياق لغوي مع كلمة رجل، كانت تعني الناحية الخلقية: رجل حسن، وإذا وردت وصفا لطبيب كانت تعني التفوق: طبيب حسن. وإذا وردت وصفا للمقادير كانت تعني النقاوة والصفاء. فالسياق الثقافي يحدّده الواقع الاجتماعي، ومفاهيمه مختلفة باختلاف الطبقات.

ويعد السياق الثقافي ركيزة أساسية في عملية الترجمة، إذ لا يمكن الاستغناء عنه بل يجب على المترجم أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الثقافي للنص المترجم حتى يقارب الصواب في ترجمة محتواه، لأن الترجمة صعبة للغاية لاسيما إذا تعلّق الأمر بالنص المقدس أو بالنص الأدبي أو الفلسفي. فإذا اعتمد المترجم الترجمة الحرفية في اللغة لا يصل إلى المعنى المنشود إلا بالاعتماد على السياق الثقافي. وعليه فاللغة

استعمال والمعنى يدخله الغموض ويكون بعيدا عن السياقات المختلفة؛ فالسياق الثقافي ليس مجرد ألفاظ ساكنة، وإنما متوالية لا نهاية من المعاني لأنه يتّصل بثقافات أخرى.[31]

ومن هنا يتبين أن السياق يعتمد على معيارين أساسيين، هما المقام وهو الموقف أو الحال، والمقال هو النص. وفكرة المقام هي أساس ما يسمى في ميدان الدراسات اللغوية المعاصرة علم الدلالة الوصفي. وهي كذلك المحور والجوهر لما يسمى بنظرية الاتصال وفكرة سياق الحال.

6-نظرية سياق الحال عند "مالينوفسكي" (1884-1942):

رغم أن"مالينوفسكي" من أصل بولوني وتخصّصه الأصلي في الفيزياء والرياضيات، ودرس علم النفس والاقتصاد، إلا أنه يصنّف من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الإنجليز، بعد تحوّله إلى دراسة أنثروبولوجيا الأسرة ونيله الدكتوراه في التخصص عام 1913، حيث صدر له مؤلفا في الأنثروبولوجيا حول مؤسسة "الكولا"، باعتبارها مؤسسة الهبة الاحتفالية التي تمارس بين القبائل في "جزر بولينيزيا"، وأكد أن المؤسسات (قواعد/ طقوس/ عادات/ تقاليد) التي استطاعت أن تستمر بفاعليتها هي الجديرة بالدراسة والاهتمام لمعرفة سر استجابتها للوظيفة الاجتماعية. وكان يلح على طلبته بضرورة تعلّم اللهجات واللغات والعيش مع الناس عن قرب لتجميع المعطيات الميدانية والتّحقق منها من مصادرها، ومن ثمّة إمكانية تأويلها في سياقاتها الكلية المترابطة. وتعد نظريته عن سياق الحال من أهم النظريات في البحث اللغوي، لأنها تمثّل ركنا هاما في الدرس اللغوي.

ولقد صاغ "مالينوفسكي" مصطلحه الشهير "سياق الحال" (Context of situation)، في بحث بعنوان «The problem of meaning in primitive languages»؛ الذي اعتبر أن اللغة ليست وسيلة توصيل الأفكار أو التعبير عنها بل التعبير عن الأفكار وظيفة من وظائف اللغة، فاللغة عنده نوع من السلوك تؤدي وظائف كثيرة إلى جانب وظيفة التبليغ.[32]

وبيّن "مالينوفسكي" أن فكرة سياق الحال "تعني أكثر من اللغويات والثقافة والبيئة وغيرها من العناصر اللغوية الميتة؛ وقد قصد بهذا المصطلح أيضا الوقوف على الجانب اللغوي الحي، بمعنى دراسة اللغة عن طريق المشاهدة والملاحظة للكلام المنطوق في الموقف الفعلي، إذ أن معنى الكلمات متأصّل في كفاءتها العملية".[33] وأنه لا يتضمن عند الاتصال اللغوي الكلمات فقط، بل الصلات والظروف الخارجية التي تسهم في إنتاجية الكلام.

لقد تنبّه "مالينوفسكي" لفكرة سياق الحال أثناء عمله من خلال دراسته الحقلية لبعض القبائل الميلانيزية، في "جزر تروبرياند – Trobiand" في جنوب "الباسيفيك"؛ جمع من خلالها عددا كبيرا من النصوص تشمل سِيَقاً سحرية وفنونا شعبية وغير ذلك من فنون الكلام، ثم حاول أن يترجم هذه النصوص إلى اللغة الإنجليزية وأن يكتب نحواً لهذه اللغة ومعجما لها، ولكنه واجه صعوبات عديدة، حيث وجد نفسه عاجزا كما يقول عن الوصول إلى أي ترجمات للنصوص التي سجلها وأخفق في الوصول إلى ترجمات مُرضية لها، ووجد أن الترجمة للكلمة لا تصلح لشيء وأنه لا يمكن أن تؤدي معنى إلا إذا عرفنا الحال التي كان عليها المتكلّم حين نطق بها؛ فالمهم أن يفهم الفكرة من وراء تلك الكلمة التي يترجمها، فقد وجد أن الكثير من الكلمات تشير إلى النظام الاجتماعي الوطني وإلى التعبيرات التي تعبّر عن معتقدات هذه القبائل وعن عاداتها واحتفالاتها، وكل ذلك ليس موجودا في الإنجليزية ولا في أية لغة أوروبية أخرى، وترجمة هذه الكلمات والتعبيرات لا يقتضي تقديم نظائرها المتخيّلة لأن نظائرها الحقيقية غير موجودة، وإنما يقتضي شرح معانيها عن طريق وصف دقيق للثقافة والتقاليد لمجتمعات هذه القبائل؛ وبالتالي يمكن ترجمة النصوص وفهمها بالرجوع إلى الموقف أو سياق الحال الذي قيلت فيه.

إن الحديث عن الثقافة البدائية بخاصة لا يعني الإخبار ولكن العمل، ذلك أن اللغة من استخداماتها البدائية تعمل على أنها رابط يساعد في تنظيم النشاط الإنساني، وأكد "مالينوفسكي" أن اللغة أسلوب عمل وليست توثيقا للفكر.[34] وفي هذا المقام نجده يقول:" اللغة بالفعل والمعنى بالاستعمال"؛ أي أن اللغة لا تكون كذلك إلا باعتبارها حدثا كلاميا–لا نصوصا مسجلة في بطون الكتب–ومعنى الألفاظ لا وجود لها إلا من خلال الاستعمال أو سياق الحال.[35] ومن هنا ظهرت أهمية فهم الدّارس اللغوي لثقافة المجتمع الذي يدرس لغته، حتى تكون لديه خلفية واسعة لما يجمعه من كلمات ومصطلحات تحمل معاني ضمنية كثيرة، وتعبّر عن فكرة وتلعب دورا أساسيا في حياة من يتكلم بها.

يقول "مالينوفسكي":" إنه على الرغم من بساطة الجمل في اللغات البدائية التي درستها، إلا أن هذه البساطة تخفي قدرا كبيرا من التعبير لا يمكن الوصول إليه إلا بالموقف أو السياق، وأن نعرف كيف توضع الكلمة وموضعها من ثقافة المجتمع؛ ويؤكد "مالينوفسكي" على أنك إذا ذهبت إلى هذه القبائل ومعك شارح ممتاز يشرح لك كل كلمة تسمعها، فإنك لن تفهم ما يدور أمامك من حديث".[36]

وقد اختار"مالينوفسكي" بين أمرين، هل ستكون ترجمة النصوص حرفية لكنها تكون ترجمة غير مفهومة لقارئ اللغة الإنجليزية، أم يترجم ترجمة حرة فلن يتمكّن من إيصال الصورة الثقافية بالنص

الأصلي. ومن هنا تبيّن لِـ "مالينوفسكي" أن الترجمة تكون صحيحة إذا وضعت النصوص في السياق نفسه الذي قيلت فيه، وأن كل ما ينتمي إلى المحيط الثقافي تكون فيه الترجمة صحيحة، فالسياق الثقافي عنده مهم للغاية في فهم وتفسير الرسالة.

إن سياق الحال عند "مالينوفسكي" كان على حد تعبير آف. آر. بالمر "قطعة من العملية الاجتماعية التي يمكن دراستها بصور مستقلة، أو كناية عن حلقة منتظمة من الأحداث، أي مجموعة واقعية وقابلة للملاحظة من الأحداث".[37] وهو يعتقد أن وصف اللغة لا يمكن أن يكون كليا، دون الإشارة إلى سياق الحالة التي تعمل اللغة ضمنها. ولقد انتهى "مالينوفسكي" إلى عدة نتائج أهمها:

– إن اللغة هي نمط من النشاط، وجزء من السلوك، فضلا عن أنها لم تعد عملية توصيل صوتي فقط للأفكار، وهذا من جوانبها.

– كذلك فإن النطوق اللغوية لا تُنطق ولا تُفهم في حد ذاتها ولكنها تفهم في "سياق الحال"، هذا السياق الذي يضم كل ما هو شخصي وثقافي وتاريخي، بل يفرض معرفة الوضع الفيزيقي الذي تمّ فيه الكلام بين متكلمين وسامعين.

– وأخيرا أوضح أن الألفاظ ليست اختلافات عالمية، فلكل لفظة ما يقابلها في لغة أخرى، ولكن المهم هو أن ندرك أن " اللفظة" تعتمد على" ثقافة " المجتمع، والترجمة ممكنة فقط عند فهم السياق الثقافي. وقد افترض أن مصاعب الترجمة تعود إلى حد كبير إلى الاختلافات في طبيعة اللغات، وأن الحاجة إلى الاستشهاد بسياق الحال تصبح أكثر أهمية عند التعامل مع اللغات البدائية.

ولعل أهم خاصية من خصائص الباحث اللغوي الأنثروبولوجي حينما يبدأ بدراسة لغة ما، خاصة دراسة لغات الجماعات اللغوية التي ليس لديها نظام كتابي أو إنتاج أدبي أو مادة مكتوبة كاللغات البدائية؛ فإنه يبدأ في اتّباع الأسلوب الميداني في دراسة تلك اللغة، فما اللغة إلا جزء من ثقافة أي مجتمع إنساني. كما عليه أن يدرك أن النصوص الشفهية لها أهميتها الكبرى في تحليل ووصف لغات منطوقة، فهي تساعدنا على فهم نواحي ثقافة المتكلمين، وهذه النصوص هي عبارة عن قصص قديمة وأغان وأساطير وطقوس وسير شخصية، توضح خصائص جمالية للجماعة التي تعبّر بها، وتحفظ من جيل إلى جيل في عقول الناس. لذلك يجب على الباحث اللغوي أن يحصل على مادتها من الرواة اللغويين مباشرة، ويتم ذلك من خلال زيارتهم في مواطنهم الخاصة، حيث أن المادة الأولية للغة هي التعابير المنطوقة، فالراوي اللغوي شخص مألوف وضروري لدراسة أي لغة حية.

كما ينبغي على الباحث اللغوي الأنثروبولوجي أن يبتعد في دراسته عن البحث في البناء الشكلي للغة، في المستويات الصوتية والنحوية من غير أن ينظر إلى ثقافة الناطقين بها، فإذا رغب أن يكون وصفه متضمّنا المستوى الدلالي، فعليه أن يستعين ببعض المعلومات الثقافية عن الجماعة التي يدرس لغتها على الأخص، إذا أراد أن تكون تفسيراته لمعنى الكلمات أكثر وضوحا، ولا يحصر نفسه في وضع قائمة للألفاظ التي تنقل ترجمة قريبة لمعنى الكلمة.[38]

وفي حديث "مالينوفسكي" عن سياق الحال، أوجد ما يسمى "بالتجامل"، وذهب إلى:" أن كثيرا مما نتكلم به لا يقصد به أساسا التفاهم، أو تقديم المعلومات، أو إصدار الأوامر، أو التعبير عن الآمال والرغبات وإثارة العواطف، وإنما يستعمل لخلق شعور بالتفاهم الاجتماعي والمعاملة؛ وكثير من العبارات المعدة أصلا – مثل–How do you do–المحددة اجتماعيا قد تخدم هذا الغرض، أي التجامل".[39]

هذه هي الخطوط العامة لفكرة "سياق الحال" كما أوضحها "مالينوفسكي"، والذي أكد من خلالها على أنها أصح سبيل إلى الدرس اللغوي وإلى بحث حياة اللغات، فهي التي تكشف لنا عن طبيعة اللغة من خلال إطارها الثقافي.

وانطلاقا من أفكار "مالينوفسكي" مثل فكرة الموقف وصلة اللغة بالثقافة وقضية المعنى والترجمة، بنى "فيرث" نظريته؛ حيث اعتبر أن دراسة المعنى هو السبب الأصلي لوجود اللسانيات، ويجب أن تهتم هذه الأخيرة "بالسياق" حيث أن المعنى القولي يعتمد على الهدف المراد تحقيقه من استخدامه إلى ما تعنيه كل كلمة بمفردها.

وذكر"Leech":" أن "فيرث" تأثّر في نظريته السياقية بالأنتروبولوجي البولوندي المولد "مالينوفسكي" الذي عُرف عنه –في دراسته للدور الذي تؤديه اللغة في المجتمعات البدائية–أنه يعالج اللغة كصيغة من الحركة وليس كأداة للانعكاس؛ اللغة في حركتها والمعنى المستعمل، يمكن أن ينظر إليهما على أنهما شعار مزدوج لمدرسته الفكرية".[40]

7– الخاتمة:

لم يكن "مالينوفسكي" لغويا بل أنثروبولوجيا، ولم يكن يسعى إلى ابتكار نظرية لغوية؛ ولذا لم تكن نظرته لسياق الحال سوى ملاحظات سجلها حين كان يترجم النصوص ويبحث عن الدقة في الترجمة.

لقد قدم "مالينوفسكي" مفهوما جديدا للغة وهو سياق المجتمع الذي أنتج اللغة. فالسياق الذي قصده هو الواقع الثقافي للمجتمع. "فمالينوفسكي" كان يدرك أن الظروف الاجتماعية لابد أن تكون حاضرة أثناء فهم النصوص؛ فاللغة لها وظيفتان: فيزيائية واجتماعية. فالأحداث التي تسبق الكلام أو التي تدفع المتكلم للنطق هي الوظيفة الفيزيائية، أما الكلام المنطوق هو الوظيفة الاجتماعية ولا يمكن دراسة الوظيفة الاجتماعية إلا من منبع الوظيفة الفيزيائية.

ومن هنا يمكننا القول إن النموذج اللغوي له صلة وطيدة بالنماذج الثقافية الخاصة بمجموعة بشرية معينة، وأن اللغة عامل أساسي في إضفاء الطابع الثقافي المميّز على المجتمع، لأن العلاقات الاجتماعية لا تقوم إلا بوساطة النموذج اللغوي الذي يؤدي إلى انتقال النمط الثقافي عبر الأجيال، ولأن اللغة جزء من الوعي الثقافي للجماعة.

هوامش:

[1]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، (1988)، تر: كمال محمد بشر، دار غريب (القاهرة)، ط2، ص61.

[2]- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، (2006)، دار القصبة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط2، ص 20.

[3]- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، (2005)، مكتبة الشروق الدولية (بيروت)، ط4، ص ص464-465.

[4]- أوزوال ديكرو، جان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، (د.ت)، تر: منذر عياش، المركز الثقافي العربي، ص677 وما بعدها.

[5]- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، (1986)، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين (صفاقي، تونس)، ط1، ص201.

[6]- محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، (1982)، مكتبة لبنان (لبنان)، ط1، ص156.

[7]- مبارك مبارك: معجم المصطلحات الألسنية، فرنسي إنجليزي عربي، (1995)، دار الفكر اللبناني (بيروت)، ط1، ص61.

[8]- آف. آر. بالمر: علم الدلالة، (1985)، تر: مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية (الكوفة- بغداد)، ص69.

[9]- ستيفن أولمان: مرجع سابق، ص54.

[10]- خليل خلف بشير العامري: السياق: أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، (القادسية، العراق)، المجلد 9، العدد2، 2010، ص42.

[11]- أحمد قدور: مبادئ اللسانيات، (2008)، دار الفكر (دمشق)، ط3، ص76.

[12]- محمود السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، (1999)، دار الفكر العربي (القاهرة)، ص311.

[13]– محمد محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء الدلالة المركزية، دراسة حول المعنى وظلال المعنى، (1993)، منشورات جامعة الفاتح، (طرابلس، ليبيا)، ط1، ص ص 02- 139.

[14]– عبد الواحد حسن: التنافر الصوتي والظواهر السياقية، (1999)، دار الوفاء للطباعة والنشر (مصر)، ص30.

[15]– محمد أحمد أبو الفرح: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، (1966)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت، لبنان)، ط1، ص121.

[16]– خليل خلف بشير العامري: مرجع سابق، ص42.

[17]– تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، (1998)، عالم الكتب (القاهرة)، ط3، ص325.

[18]– محمد علي الخولي: مدخل إلى علم اللغة، (2000)، دار الفلاح (الأردن)، ط2، ص136.

[19]– علي زوين: ظلال المعنى بين الدراسات التراثية وعلم اللغة الحديث، مجلة آفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام–دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، المجلد 15، العدد 5، السنة الخامسة عشرة، شوال/ آيار 1990م. ص ص 71–81.

[20]– ستيفن أولمان: مرجع سابق، ص109.

[21]– أحمد عمر مختار: علم الدلالة، (1998)، عالم الكتب (القاهرة)، ط5، ص70.

[22]– تمام حسان: مرجع سابق، ص345.

[23]– حلمي خليل: الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، (1998)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، مصر)، ط1، ص212.

[24]– أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر (سيبويه): كتاب سيبويه، (د.ت)، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل (بيروت)، ط1، 25/1.

[25]– ابن علي بن يعيش: شرح المفصل، (د.ت)، مكتبة المتنبي (القاهرة)، 113/1.

[26]– محمد بن غدريس الشافعي: الرسالة، (2004)، تح: أحمد شاكر، دار القلم (دمشق)، ص52.

[27]– فرديناند دي سوسور: دروس في الألسنية العامة، (1985)، تر: صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب (طرابلس، لبنان)، ص188.

[28]– ستيفن أولمان: مرجع سابق، ص62.

[29]– أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، مبحث صوتي، مبحث دلالي، مبحث تركيبي، (2013)، منشورات كلية التربية الإسلامية والعربية، قسم اللغة العربية وآدابها (دبي، الإمارات العربية المتحدة)، ط2، ص18.

[30]– أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص71.

[31]– يوسف عبد الفتاح أحمد: قراءة النص وسؤال الثقافة، (1999)، عالم الكتب الحديث (عمان)، ص31.

[32]– محمود أحمد حسن المراغي: علم الدلالة مع دراسة تطبيقية مقارنة بين العربية والفصحة وعبرية العهد القديم، (2007)، دار المعارف المصرية (مصر)، ص24.

[33]– عبد النعيم خليل: مرجع سابق، ص 81.

[34]- جيفري سامبسون: المدارس اللغوية: التطور والصراع، (1993)، تر: أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (لبنان)، ص234.

[35]- أحمد نعيم الكراعين: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، (1993)، الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (لبنان)، ص102.

[36]- عبده الراجحي: اللغة وعلوم المجتمع، (1977)، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية (مصر)، ص25.

[37]- آف، آر، بالمر: مرجع سابق، ص62.

[38]- عبد الغفار حامد هلال: اللهجات العربية نشأة وتطورا، (1993)، مكتبة وهبة (القاهرة)، ط2، ص124.

[39]- جول لاينز: علم الدلالة، الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري،(1980)، تر: مجيد عبد الحليم الماشطة وحليم حسن فالح وكاظم حسين باقر، كلية الأدب، جامعة البصرة (دمشق)، ص32.

[40]- أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص72.